صـــلوات فـكر
فى محاريب الطبيعة

[كتب كثير من هذه الخواطر فى الرستمية بالعراق العزيز ، فهى مهداة إليه]

للأستاذ عبد المنعم خلاف

١٤ — مقول الشوك

أُنظر بعينيك وحاذر أن تَدمَى من مواقع النظر . . . واجمع أطراف ثيابك لا تعلَق بها حُمَاتُ الشوك فتمزق ... وناقِلْ الخطى فى حذر وخشية ، حتى لا تقع القدم على هذه الأسِنَّة المُشرعَة ...

لا بلابل هنا ولا فَرَاشات ، وإنما غِالٌ تسعى فى حذر ... ولا ورق يرقص مع النسمات ، وإنما اهتزازاتُ حِرابٍ تُدمِى جسم النسيم !...

ومع ذلك فقد مددت يدى وقطفت عِذقاً . . . فإذا هندسة بارعة ، وإذا القلم الذى نسق الزهرة ونسج حريرها ووشَّى أفنوافَها قد صنع هنا كذلك عجباً !

يد الخالق تُدبِّب الشوك ولا تَدمَى ، وتَخُطُّ فمَ الخنزير ولا تتنجس !

١٥ — جانيات الشوك

جاء الربيع وأخرجت الأرض نباتها من الزهر والثمر والشوك...

وخرج كل مالك يقطف ويجنى مما يملك من الحقول والبساتين

وخرجت جانيات الشوك إلى الأرض البور التى احتكرتها الطبيعة لنفسها لكى تخططها بالرياح وتسقيها بالسَّيْح والمَطر ، وتنبت فيها ما تشاء ...

خرجن يسعين حافيات قد لَفَّفْن سيقانهن بِخِرَقٍ بالية حفظاً للجمال النَّسوى من الخدش والتجريح . . . عليهن ثياب ممزقة ، وفى أيديهن حبال رثة ، يوزعن نظراتهن هنا وهناك على أديم الأرض باحثات عن أخصب البقاع بالشوك وأملئها بالوَسْج ، فإذا وجدنه أعملن فيه فئوسهن الصغيرة ثم جمعنه وحزمنه وحملنه على ظهورهن وسرن به كالقنافذ ! وطُفْن به فى الأسواق فيشتريه بعض الناس بثمن بخس ليوقدوا به حاملهم ومطابخهم .

ولا يبالين بالأزهار البرية الجميلة التى نبتت بجوار الأشواك ، إذ هن مشغولات بجمع ما يجلب ثمن الخبز ... إن الأزهار لا توقد ناراً فلا وزن لها فى أيديهن وأعينهن ...

هنا أمل وعمل من آمال القلوب وأعمال الأيدى يا أرباب الفكر !

هنا ملمس من ملامس الدنيا يا ذوى العيش الرافه الناعم .

يا جامعات الزهور من روضات القصور . صافحن الأيدى

والخطأ هنا أن « الوعى الباطن » لم يخلق ليلغى الوعى الظاهر أو يمنعنا أن نرى الدنيا ، ولكنه خلق ليظل وعياً باطناً حيث هو فى قرارة الضمير ، نستدل عليه بعلاماته التى تتفق عليها الأنظار . وما من أحد يبنى بيته أو يطبخ طعامه أو يخيط ملابسه أو يحضر دواءه على ما يتصوره هذا وذاك وأولئك فى وعيهم الباطن المزعوم . فلماذا يتغير وجه الإنسان لأن له وعياً باطناً أو لأن المصور له وعى باطن ، أو ما يزعم من هذا الهراء ؟

ومن البديه أن التصوير « فن » له أدواته وتحضيراته وملكاته التى لا تشبه ملكات الفنون الأخرى ؛ فما هى الدروس التى يتعلمها المصور ليصبح على هذا المذهب مختصاً فى صناعته ؟ ما هى تلك الدروس إذا نحن ألغينا الرسم والتلوين واللامح والأشباه ؟ أهى دروس التنجيم عن الوعى الباطن ؟ وكيف الاتفاق عليها ولا يوجد اثنان يتفقان على تسمية صورة من متعلمى ذلك التنجيم ؟

الواقع أن « الوعى الباطن » له مكان واحد من شؤون هذه البدعة المرضية ، ومكانه هو إظهار العلة المرضية التى تكمن فى بواطن المصورين المشغوفين بكل بدعة من هذا القبيل

فما لا شك فيه أنهم جميعاً قوم « تفهون » تتخطاهم العيون ، فهم بين مشوه أو ضئيل أو مهزوم النفس أو عاجز عن لفت النظر إليه ؛ فحيلتهم هى حيلة هذا الضرب من الناس فى اتخاذ المشاكسة والتحدى والإغراب وسيلة لتنبيه إليه ، وهذه هى الحقيقة الواحدة التى لها شأن « بالوعى الباطن » فى مذهب هؤلاء الثلاثة ؛ فهم مصابون فى وعيهم الباطن يترجونه كارهين ، ويعرضون على الناس من ثم أعراض مرض لا معارض فنون .

عباس محمود العقاد

الخشنة لأخواتكن جامعات الأشواك بأيديكن الناعمة ... فتلك أيضاً صدقة !

١٦ — قذارة عليها طهارة

رأيت قذارة عليها أشعة الشمس ! طهارة وصفاء يتنازلان إلى عالم النجاسة والكُدْرَة ... الطهارة تمد يدها إلى النجاسة لتطهرها وترفعها إليها ... العالى ينظر إلى السافل نظرة رائية مسعدة منقذة ولا يخشى أن يتلوث ويتسفل .

وهكذا النفوس الشمسية : تضيء للمظلمين ، وتطهر المتنجسين وترفع السافلين ...

١٧ — كما تنظر الحشرات

وضعت رأسى مرة بين الأعشاب مستلقياً ، فنغطت الحشائش وجهى ، ونظرت السماء من خلالها ، فرأيت مقطعاً من مقاطع الدنيا فى نظر بعض الأحياء الضئيلة القميئة ...

نظرت الدنيا نظر حشرة من تلك الحشرات التى تختبئ فى الأعشاب ...

صار كل شيء عظيماً جداً فى عينى ، حتى هذه الأوراق الصغيرة صارت فى زَيْغ البصر كالجبال الشاهقة التى تناطح السحاب ... وخيل إلىّ أنى فى غابة هائلة كثيفة مظلمة ... ورأيت الفرق الهائل بين الدنيا فى نظر إنسان والدنيا فى نظر حشرة

وكل حى له دنيا رهينة بحواسه وهندسة وَضْعِه وقامَتِه .

فلو سجد بعض المتكبرين المتغطرسين برءوسهم حيث يضعون أقدامهم لتغير نظرهم للحياة ولأنفسهم وللناس ...

١٨ — مفارقات

سقطت فَرَاشةٌ على زهرة ؛ وسقط جُعَلٌ على بَعْرَة ، وسقطت عيناى عليهما !

كان كل منهما فى شغل بطله عن عالم الآخر ، ولكن قلبى كان فى شغل شاغل بعالميهما ...

لقد رشفت الفراشة رشفة من رحيق الزهرة ثم شالت عنها إلى غيرها ، ولكن الخنفساء لم تبرح مكانها ، فرزقها كثير ...

إنها حيث تسير تجد العفونات والقذارات فتأكل وتتناسل

أما الفراشة فجهودة كالرغبات الطائرة . . . تسافر كثيراً حتى تظفر بملء أرحيتها ...

لا شك أن جامع الخير والجمال من الدنيا يَلقُطُه لقطاً من ثنايا الشر والقبح ويتعب فى تحصيله تعب هذه الفراشة المجهودة

١٩ — الوسوسة المحبوبة

كانت عناكب كثيرة صغيرة آمنة فى بيوتها تنسج الشباك للصيد ... فانقضت عليها عصفور صغيرة وابتلعتها واحدة فواحدة أمام عينى ...

والناس يزعمون أن العصافير وديعة ويحبونها ، ولكن من يدرس حياتها يعلم أنها شرسة مشاغبة مقلقة كثيرة التصايح من أول النهار إلى آخره ، ولها وجه حادُّ اللامح ومنقارٌ جارح وطباع عصبية . وإنما يشفع لها جمال منظرها ورشاقة جسمها وضآلة حجمها ...

وكم غَرَّ المنظرُ وخَدَعَ المخْبَرَ ! وكم رحم الناس ضعيفاً هو أقسى على الحياة من الذئب !

٢٠ — غضب الضعفاء

اشتبك عصفوران فى عراك ، وصارا يتصايحان صياحاً لفتنى إليهما ، ثم نقر كل منهما الآخر بمنقاره نقرة ، ثم افترقا من غير دم

قلت لقد فضحتما ضعفكما ... فما كان ينبغى لكما أن تُقدما على غضب ، لأنكما لا تمتلان قوته المنيفة

وينبغى للضعيف ألا يغضب ، لأن غضبه يزيده ضعفاً بما ينال من نفسه ، وما ينال من هزء الناس به ...

إن الغضب يحتاج إلى قوة يُفجِّر بها الفم !

٢١ — شباك العنكبوت

لماذا هذا الترقب والانتظار للختل والاغتيال أيتها العناكب ؟

لماذا تنسجين شباكك وتطرحينها فى طريق الفراشات والنحل التى تحصل غذاءها بجهودها لتقنصيها وتشربى دماءها وأنت فى مكانك ؟

لماذا تقطعين الطريق على العاملات المجهودات أيتها القعدة الكسيحة ؟

بخيط خفىّ رقيق تلقينه للريح تستطيعين أن تقتنصى أجنحة رفافة عاملة !

تقتنصين دماء النافلات المخدوعات وترصّعين بحطام جثثها

وأشلائها بيوتك الواهنة التي لم تقم على أساس ...

ولكن لا ملام عليك ولا تثريب ... وإنما على أيدٍ تملك المكانسَ التي تستطيع أن تبطشَ بكِ وتدكَّ بيوتك وتخلص الضعفاء من أحابيلك ، ثم لا تفعل !

٢٢ — الهلوك

وهذا أيضاً نبات طُفَيلي كسيح الساق لا يضرب بجذرٍ في الأرض ليقوم عليه ويستغني به عن الاعتماد على الغير . رأيته يمد حباله وشباكه فيصطاد شجيرات من الورد والخشخاش ويقطع طرق غذائها ويسلبه لنفسه ويخنق أطفالها من الأزهار الجميلة ويلف قوام جسمه النهالك على سيقانها ليعتمد عليها ، ثم يزهر ويضحك وينظر إلينا بوقاحة !

لقد أصاب شجيرات الورد بالشلل فلم تزهر وأزهر هو ... فلم أر بداً من أن أفصل بين الأصيل والدخيل الغاصب الوقح بضربة فأس وإعمال يد لأخلص أطفال الورد المختنق الجائع المغيظ أبداً يَرْصُد عالم الشر قريباً من جنوده لكل فرد من عالم الخير يعلن عليه حرباً ...

فعلى إنسان الخير أن يقف دائماً في مكانه من الصف ، وأن يُعمِل فأسه دائماً في بستان الحياة يستأصل بها جذور الشر ويسحق أزهاره وثماره . وإلا لم يجد لنفسه غذاء ولعينه مسرحا ، ويفسد عليه عالم الشر كلَّ إحساس بجمال الحياة ، ويسلبه متاعه بمعشوقاته من بنات الطبيعة الفاتنات

٢٣ — السائرات المطرقات

سائراتٌ مكبوباتُ الوجوه الطويلة ، تنظر إلى الأرض دائماً كاسِراتِ الجفون

كُتَلٌ لحمية متجلدة ماتت أعصابها من فرط الضرب والحمل والإرهاق وورائات الاضطهاد ...

قطعٌ من الصبر والبلادة وموت النفس والهوان والسآمة ..

عيونها عميقة تنظر بهدوء لما حولها كأنها عيون فلاسفة فرغوا من حل جميع العقد والمشكلات وليس لها دموع تبكي بها وتعلن الشكوى ...

تريد أن تفرِّج عن قلوبها فترسل صوتها لترتاح ، فتخرج قلوبها مع همومها من حلاقيمها في صوت مُنْكَر فيأبى الناس عليها ذلك ويردون أصواتها وهمومها إلى نحورها ...

اغفروا أيها المالكون للمملوكين إذا تَنَفَّسوا

ارحموا الأغبياء والمحدودين فإنهم ما خلقوا أنفسهم حتى يعاقبوا أو يعاتبوا ...

لا البلبل خلق نفسه ولا الغراب يا أولي الألباب !

ترى ، متى يشعر الفلاحون والعمال بالرحمة لهذه المخلوقات فيعاملوها معاملة رُفْقَةِ العمل ؟ ولكن الفلاحين والعمال لا يشعر رعاتهم نحوهم برحمة . فهم كذلك لا يشعرون بها لرعاياهم . كيلاً بكَيْلٍ ... والموج دائماً ينحدر من الأعلى للأدنى ...

متى يأتي اليوم الذي ترتاح فيه هذه المخلوقات وتتخذ للزينة والجمال وحدها وتقتنى في حدائق الحيوان كمخلوقات أثرية تدل على عهد باد من عهود شقاء الإنسان وشقوة سكان الأرض معه ؟

هو اليوم الذي يقتنى فيه كل فلاح وعامل حاجته من مخلوقات الحديد والفولاذ

عبد المنعم محمد مهنوف

صدر اليوم

أزواج وأشباح

على محمود طه

ديوان جديد من شعر الروح الثائر

ملحمة في أكثر من أربعمائة بيت من الشعر

عن المرأة والرجل والغريزة والفن والحب

تحلى بالصور الرمزية المبتكرة

طبعة فاخرة من ثلاثة ألوان على ورق مصقول نادر

وغلاف مصور بالألوان الرائعة

يطلب من مجلة الرسالة وجميع المكتبات المصرية

ثمن النسخة ٢٥ عدا مصاريف البريد